عنوان البرنامج: القيم
الوحدة الأولى: مدخل تأسيسي لمفهوم القيم
الدرس الثالث: التحديد السيكولوجي والسوسيولوجي لمفهوم القيم
اسم المحاضر: الأستاذ الدكتور محمد بلكبير

التحديد السيكولوجي والسوسيولوجي لمفهوم القيم

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين..

في الحلقتين السابقتين، حددنا مفهوم «القيم» من حيث الدلالة اللغوية والاصطلاحية والفلسفية، إلا أن مفهوم «القيم» لا يتوقف عند هذه الدلالات أو هذه التعريفات الثلاثة، وإنما هناك أبعاد أخرى تحدد مفهوم «القيم» وتجعله أكثر تجلية وأكثر وضوحا، وسنسلط الضوء في هذه الحلقة الثالثة على مفهوم «القيمة» من حيث البعد السيكولوجي والبعد السوسيولوجي، لأن القيم كذلك لها حيز سيكولوجي نفسي، وحيز اجتماعي أيضا فيما يخص بناءها وتركيبها وتنميتها.

درج الناس على أن يربطوا القيم بالسلوكيات، حينما ينظرون إلى الأخلاق أو إلى التصرفات، فيجعلون منها قيما؛ أي أن القيمة في عرفهم وفي مفهومهم هي السلوك الصادر عن الإنسان، ومن هذا المنطلق يقولون قيمة إيجابية، أو قيمة سلبية، ولكنهم من خلال هذا الحكم إنما يحكمون على الوجه الظاهر للقيمة، وهو السلوك أو التصرف أو الخلق، وسنرى في الحلقة الرابعة –إن شاء الله – هذه الأبعاد المرتبطة بالأخلاق والقيم والشيم والسجايا ...

حينما نتكلم عن القيمة لا يجب ربطها فقط بالجانب أو المظهر الخارجي الذي هو السلوك أو التصرف، لأن القيمة هي المحرك للسلوك، فلما نتكلم عن القيمة من هذا المنظور السيكولوجي، تصبح القيمة مقابلة لما يعرف في علم النفس، وعلم النفس الاجتماعي بشكل خاص بالموقف، إذن فالقيم تقابل «المواقف». والموقف هو الاستعداد النفسي والعقلي للسلوك، إذن فتصبح القيمة من هذا المنظور هي ما وراء السلوك، وما وراء التصرف، وما وراء الجانب الأخلاقي، لأننا حينما نحكم على الأخلاق

نحكم على التصرفات ما يبدو وما يظهر وما يتجلى، ولكن هذه التجليات وهذه التمظهرات إنما يكمن وراءها دافع أول، وهذا الدافع بالمعنى النفسي أو السيكولوجي هو القوة الداخلية التي تحرك الإنسان ليسلك، إذن فالقيمة هي أساس السلوك وليست السلوك ذاته، فحينما أريد أن أشرب إذن هناك حاجة وهي العطش، إذن العطش يحركني لكي أبحث عن الماء ويصبح مقصدي هو أن أشرب لإرواء هذا الظمأ ولكن هل يمكن أن أشرب أي ماء مهما كان؟ أو أي سائل مهما كان لأزيل قوة العطش؟ فما هو منهي عنه شرعا لا يمكن أن أشربه مهما كان الأمر والذي يجعلني لا أقبل على شرب أي شيء هو القيمة، أي هذه القناعات الداخلية التي تجعلني أقبل على هذا الشيء ولا أقبل على هذا الشيء، حينما أحس بالجوع، والجوع غريزة بيولوجية نجدها عند كل الكائنات الحية من الإنسان، ومن ثمة حينما أحس بهذا الجوع، لا يمكن بدافع الجوع أن أتناول أي طعام، فالأطعمة المنهي عنها شرعا، لا يمكن أن أتناولها مهما بلغت مني قوة المسغبة، إذن فيصبح الكابح والدافع لكي لا أتناول هذا الطعام هو القيمة، إذن فالقيمة هي المحرك الداخلي وهي القناعات الداخلية وهي الجوانب النفسية التي تحرك السلوك وتجعل هذا السلوك مقبولا ومرغوبا فيه، وهذا السلوك غير مقبول ومرغوبا فيه، ولكن هذه القيم الداخلية من حيث هذه التعريفات السيكولوجية كيف تنشأ، إنها تنشأ عن طريق التطبيع الاجتماعي.

إذا ما رجعت إلى المثالين السابقين فيما يخص الأطعمة والأشربة، ما الذي يجعلني أقبل على هذه الأطعمة ولا أقبل على غيرها؟ وأقبل على هذه الأشربة ولا أقبل على غيرها؟ إذن التمثلات المعرفية والفكرية والثقافية التي كونت لدي هذه القناعات. فأصل القناعات ليس مرتبطا فقط بالجانب الغريزي النفسي، حسب فرويد، ولكن بالجانب السيكولوجي الثقافي المحرك لهذه القناعات. فالقناعات لا تنشأ من تلقاء نفسها ولكن تنشأ من وسط اجتماعي معين. فالحضارة أو الثقافة هي هذا الإرث الذي نشأت فيه، والذي تكونت فيه والذي تربيت فيه، والذي اقتنعت به، واستضمرته في أطر مرجعية، أصبحت هي المحددة للسلوك، وحينما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودناه أو يمجسانه أو ينصرانه»، أي يكسبانه سلوكا معينا، ولكن هذا السلوك ليس على مستوى التقليد، وإنما يكتسبه على مستوى التأطير الذي يحدث لديه داخل ذاته وبنائه النفسي، وقد يحدث كذلك على مستوى بنائه العصبي فيسلك وفقه، ولكن المنشأ ليس منشأ من فراغ، وإنما منشؤه منشأ ثقافي حضاري فكري، إذن من هذا المنطلق تصبح القيمة لها بعدان: بعد سيكولوجي داخلي يحرك السلوك، وبعد ثقافي فكري حضاري، هو الذي يركز هذه القناعات ويُنَشِّؤُها ويُنْشِؤها داخل الذات، ومن ثمة كان للقيمة مجموعة من الخاصيات المرتبطة بهذا البعد السوسيولوجي أو البعد الاجتماعي، منها مثلا الإنسان قد يغير قيمه من فترة إلى فترة أخرى. فالقيم ليست مطلقة وإنما تتغير حسب الأزمنة،

وحسب الظروف وحسب التأثيرات التي يمكن أن تحدث، ومن هنا نجد الإشكال الذي يطرح على مستوى القيم في أسئلة أربعة:

السؤال الأول: لماذا كانت هناك قيم سائدة لدى مجموعة من الناس ولازالت كذلك؟

السؤال الثاني: لماذا كانت هناك قيم سائدة ثم بادت وأصبحت في خبر كان؟

السؤال الثالث: لماذا كانت هناك قيم سائدة ثم بادت ثم عادت لتتصدر المشهد القيمي؟

السؤال الرابع: لماذا ظهرت قيم جديدة بديلة إما مكملة لهذه القيم، وإما متجاوزة لها، إن الذي يحدد هذه القيم هو هذا البعد الحضاري والبعد الثقافي والتغيرات التي تحدث للمجتمع، ويجد فيها الإنسان توازناته دون أن يختل مساره الروحي أو مساره الوجودي، لأن القيم تبعا لهذا تتغير عبر الاجتهادات وعبر تحديد الخطابات وعبر الفهم الجديد لمجموعة من الأساسات البنائية للإنسان..

الخاصية الثانية هو أن القيم لا يمكن أن تتغير بين عشية وضحاها، وإنما يتطلب تغييرها مدة معينة، وهذا ما قلنا عنه إنها تتميز بالثبات والاستمرار والاستقرار، لأن المتغيرات الاجتماعية لا يمكن أن تحدث بين عشية وضحاها، لأن الانتقال من مشهد حضاري قيمي فكري ثقافي إلى آخر يتطلب زمنا طويلا. ومن ثمة القيم التي أنشأها هذا المشهد الثقافي الحضاري تبقى راسخة إلى أن يتغير هذا المشهد الثقافي أو الحضاري بالمعنى العام...

ثم الخاصية الثالثة لهذه القيم تحدث بفعل تغيرات قد تقع للمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، هذه التغيرات إما أن تكون ناتجة عن ظواهر بيولوجية أو عن ظواهر ثقافية أو عن ظواهر كونية أو عن ظواهر بيئية، إذن لابد أن تحدث متغيرات كبرى تجعل الإنسان يغير فكره وثقافته، ومن ثمة يغير كذلك قيمه. إذن فالبعد السيكولوجي أساسي في تحديد القيم، والبعد الثقافي كذلك مرسخ أيضا لهذه القيم وبانٍ لها، ومن ثمة تصبح القيم مكتملة حينما ننظر إليها من كل أبعادها ومن كل تجلياتها بما في ذلك البعد القيمي والبعد الفلسفي والبعد السوسيولوجي والبعد الاجتماعي.